النقوش العربية والصور

نقلنا في الجزء الخامس من المقتطف الذي صدر في شهر مايو الماضي كلاماً في وصف جامع دمشق لشيخ شمس الدين المقدسي الذي زاره سنة ٩٨٥ للهجرة اي منذ ٩٢٥ سنة قال فيه ان حيطانهُ كانت مبطنة الى قامتين بالرخام المجزَّع ثم الى السقف بالفسيفساء الملونة المذهبة فيها صور اشجار وامصار وكتابات على غاية الحسن والدقة واتقان الصنعة وقلَّ شجرة او بلد مذكور الاَّ وقد مثل على تلك الحيطان . ونقل صاحب محاسن الشام «ان الرخام كان في جدران الجامع سبع وزرات ومن فوقهِ صفات البلاد وما فيها من العجائب وان الكعبة المشرفة وضع صفاتها فوق المحراب ثم فوق ذلك البلاد يميناً وشمالاً وما فيها من الاشجار المثمرة والمزهرة» ولم تزل بعض قطع الفسيفساء من تلك الصور الى الآن

ورسم المدن والاشجار ونحوها من الجماد في المباني الاسلامية القديمة غير نادر في هذا القطر ولا في القطر الشامي ولكن النادر رسم الحيوانات واندر منهُ رسم الانسان . ولا نتذكر اننا رأينا رسماً واحداً للانسان في كل المباني الاسلامية القديمة كأن ذلك محرَّم شرعاً . ويظهر لنا ان الشقاق الذي حدث بين النصارى من حيث استعمال الصور في العبادة اتصل ببلاد العرب وكان جمهور النصارى هناك من المحرمين استعمال الصور فلما استولوا بقوا على معتقدهم وزادوا رسوخاً فيهِ . ولكن لما فتح العرب مصر والشام والعراق وبلاد فارس واتصلوا بالقبط والروم والفرس واستعانوا بهم في بناء المباني وزخرفتها قللوا التشديد في تحريم الصور والتماثيل او صاروا يحرمونها تارةً ويحللونها اُخرى حسب تحمسهم في الدين او حسب تحمس مرشديهم من القضاة والمفتين

وقد اتينا في ما تقدَّم ان جامع دمشق كان مزدانًا بصور الامصار والاشجار وبعضها مرسوم فيهِ اماكن دينية كرسم الكعبة المشرفة . وليس لدينا وصف قصور الخلافة في دمشق ولكن ان استحلَّ رسم هذه الصور في المساجد فلا ما يحرِّم رسمها في البيوت والقصور . ولقد درست قصور بني امية وليس في ما لدينا من كتب التاريخ وصف لها ولا لغيرها من القصور التي بنيت بعدهم في بلاد الشام . وقد رأينا في المباني العربية القديمة التي لا تزال قائمة في دمشق نقوشاً كثيرة في الرخام والميناء ولا نتذكر اننا رأينا فيها شيئاً يستحق الذكر من صور الاشجار والحيوانات

لكن ما زال من دمشق ولم يبقَ ذكرهُ في كتب التاريخ او ما لم يوجد فيها وجد في

مصر والاندلس وترى لهُ وصفاً بديعاً في كتب المؤرخين ودواوين الشعراء. ذكر المقريزي انهُ لما اشتدَّ القحط في مصر على عهد الخليفة المستنصر الفاطمي نحو سنة ٤٦٠ للهجرة باع ما في خزائن الجوهر والطيب والطرائف والفرش والامتعة لينفق على اعوانهِ وجندهِ وفي جملة ذلك اجاجين (اجران) صيني كبار مجلاة كل اجانة منها على ثلاثة ارجل على صورة الوحوش والسباع معمولة لغسل الثياب وطاووس ذهب مرصَّع بنفيس الجوهر عيناهُ من ياقوت احمر وريشهُ من الزجاج الميناء المجرى بالذهب على الوان ريش الطاووس. وديك من الذهب لهُ عرف مفروق كاكبر ما يكون من اعراف الديوك من الياقوت الاحمر مرصع بالدر والجوهر وعيناهُ ياقوت. وغزال مرصَّع بنفيس الدر والجوهر وبطنهُ ابيض قد نظم من درٍّ رائع. وبخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكلهِ ولونهِ وعلى صفتهِ وهيأتهِ من الجواهر. وبستان ارضهُ فضة مخرقة مذهبة وطينهُ ند واشجارهُ فضة مذهبة مصوغة واثمارهُ عنبر. واخرج من خزائن الفرش من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف الوانها واطوالها عدة مئين تقارب الالف فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها مكتوب على صورة كل واحد اسمهُ ومدة ايامهِ وشرح حالهِ

ومن ذلك مقطع من الحرير الازرق الستري القرقوبي غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر الوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعملهِ في سنة ٣٥٣ فيهِ صورة العالم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وانهارها ومسالكها شبه جغرافيا وفيهِ صورة مكة والمدينة مبينة للنظر مكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمهُ بالذهب او الفضة او الحرير وفي آخرهِ مما امر بعملهِ المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة والنفقة عليهِ اثنان وعشرون الف دينار

ونقل المقريزي عن كتاب الذخائر انهُ أُخرج في ما أُخرج من خزائن القصر عدة لم تحصَ من اعدال الخيم والمضارب المعمولة بالديباج والمخمل والمرواني والديباج الملكي والارمني والبهناري والكردوالي منها المفيَّل والمسبَّع والمخيَّل والمطوَّس والمطير وغير ذلك من سائر انواع الوحش والطير والآدميين (اي عليها صورها) من سائر الاشكال والصور البديعة الرائعة وانهم اخرجوا فسطاطاً كبيراً اكبر ما يكون يسمى المدوَّرة الكبيرة يقوم على عمود طولهُ خمسة وستون ذراعاً بالكبير ودائرة فلكتهِ عشرون ذراعاً فقطرها ست اذرع وثلثا ذراع ودائرهُ خمسماية ذراع وقطع خرقهِ اربع وستون قطعة كل قطعة منها تحزم في عدل يجمع بعضها الى بعض بعرى وشرارب حين ينصب تحمل خرقهُ وحباله وعدته على

مئة جمل . قد صوّر في رفرفهِ كل صورة حيوان في الارض . وكان الخليفة انفذ الى ملك الروم في طلب عمودين للقسطاط طول كل واحد منهما سبعون ذراعاً احدهما في هذا القسطاط بعد ان قطع منهُ خمس اذرع

وذكر بعد ذلك ان هذا القسطاط صنع في حلب صنعهُ الحسن علي بن احمد المعروف بابن الايسر في سنة ٤٤٠ وانفق على خرقهِ ونقشهِ وعدتهِ ثلاثون الف دينار (اكثر من ١٥ الف جنيه)

وكانت قصور اصحاب مصر مزدانة بالصور والتماثيل كما تزدان بها قصور الافرنج الآن نقل المقري في نفح الطيب ان ابا الصلت امية بن عبد العزيز الاندلسي قال يصف قصراً بمصر يسمى منزل العز بناهُ حسن بن علي بن تميم بن المعز

منزل العز كاسمهِ معناهُ لا عدا العز من بهِ سمّاهُ
فاجل فيهِ لحظ عينيك تبصرْ اي حسن دون القصور حواهُ
سال في سقفهِ النضار ولكن جمدت في قرارهِ الامواهُ
وبارجائهِ مجالٌ طراد ليس تنفك من وغىً خيلاهُ
تبصر الفارس المدجج فيهِ ليس تدمي من الطعان تناهُ
وترى النابل المواصل للنز ع بعيداً من قوسهِ مرماهُ
وصفوفاً من الوحوش وطيراً لجو كلٌّ مستحسن مرآهُ
سكنات تخالها حركاتٍ واختلاف كأنهُ اشياهُ

وقد تفنن الكتّاب في وصف مباني العرب في الاندلس وما فيها من النقش والتصوير والتمثيل فقد جاء في وصف الزهراء التي بناها الناصر حاضرة لهُ في قرطبة انهُ نصب فيها حوضاً منقوشاً مذهباً غريب الشكل غالي القيمة جلبهُ اليهِ احمد اليوناني من القسطنطينية وحوضاً صغيراً اخضر منقوشاً بتماثيل الانسان جلبهُ من الشام وقالوا انهُ لا قيمة لهُ لفرط غرابتهِ وجمالهِ ونصبهُ الناصر في بيت المنام في مجلسهِ الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليهِ اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعةً بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبهِ غزال الى جانبهِ تمساح وفي ما يقابلهُ ثعبان وعقاب وفيل وفي المجلسين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصّع بالجوهر النفيس يخرج الماء من افواهها

قال المقري . وكمل للناصر بنيان القناة الغربية الصفة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب

من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة في المناظر المتدسة وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة الى بركة عظيمة عليها اسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد ابهى منهُ في ما صوَّر المترك في غابر الدهر مطليٌّ بذهب ابريز وعيناهُ جوهرتان لهما وميض شديد يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيجعهُ في تلك البركة من فيهِ فيبهر الناظر بحسنهِ وروعة منظره وثجاجة صبهِ فتسقى من ثجاجهِ جنات هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاتهِ وجناتهِ ويمد النهر الاعظم بما فضل منهُ فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصب فيها من اعظم آثار المترك في غالب الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وثخامة بنيانها وعتو ابراجها التي يرقى الماء منها ويصوب من اعاليها - انتهى

ووصف ابن حمديس العقلي داراً بناها المنصور بن ابي عامر لبعابة من افريقية قال

اعمر بقصر الملك نادبك الذي ... اضحى بمجدك بيتهُ معمورا
واشقَّ من معنى الجنان نسيمهُ ... فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نبي الصبيح مع الفصيح بذكرهِ ... وسقا فساق خورنقاً وسديرا
لو ان بالايوان قوبل حسنهُ ... ما كان شيئاً عندهُ مذكورا
اعيت مصانعهُ على الفرس الالى ... رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ... لملوكهم شبهاً لهُ ونظيرا
اذكرتنا الفردوس حين اريتنا ... غرفاً رفعت بناءها وقصورا
فلك من الافلاك الا انهُ ... حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرتهُ فرأيت ابدع منظر ... ثم التفت بناظريك محسورا
فظننت اني حالم في جنة ... لما رأيت الملك فيهِ كبيرا
واذا الولائد فتحت ابوابهُ ... جعلت ترحب بالحفاة صريرا
عضت على حلقاتهن ضراغم ... فغرت بها افواهها تكبيرا
فكأنها لبدت لتهصر عندما ... من لم يكن بدخولها مأمورا
تجري الخواطر مطلقات أعنة ... فيهِ فتكبو عن مداهُ قصورا
بورخم الساحات تحسب انهُ ... فرش الملا وتوشح الكافورا
وتحسب بالدر تحسب تربهُ ... مسكاً تضوع نشره وعبيرا

ثم ذكر بركة فيهِ عليها اشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها الماء وتفتن فتذكر اسودا على حافاتها قاذفة بالماء ايضاً فقال

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضار جسومها واذاب في افواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلّت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديرا
وبديعة الثمرات تحبر نحوها عيناي بحر عجائب مسجورا
شجرية ذهبية نزعت الى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قد صوبحت اغصانها فكأنما قبضت بهن من الفضاء طيورا
وكأنما تأبى لوقع طيرها ان تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعدّ من الفصاح فان شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما سيف كل غصن فضة لانت فارسل خيطها محرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ومصفّح الابواب تبرأ نظّروا بالنقش فوق شكولهن تنظيرا
تبدو مسامير النضار كما علت تلك النهود من الجنان صدورا
واذا نظرت الى غرائب سقفه ابصرت روضاً في السماء نضيرا
وعجبت من خطاف عسجده التي حامت لتبني في ذراه وكورا
وضعت به صناعها اقلامها فأرتك كل طريفة تصويرا
وكأنما للشمس فيه ليقة مشقوا بها التزويق والتشجيرا
وكأنما اللازورد فيه محرم باللحظ سيف في ورق السماء سطورا
وكأنما وشّوا عليه ملاءة تركوا مكان وشاحها مقصورا

وواضح مما تقدّم ان العرب الذين سكنوا مصر والشام وافريقية لم يأنفوا من الاقتداء بالروم في وضع الصور والتماثيل في دورهم ولكنهم لم يجروا على وتيرة واحدة وقد علل بعضهم ذلك في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر بان عرب اليمن لم يكونوا يأنفون من وضع الصور والتماثيل في مبانيهم لانهم الفوها في بلادهم وكذلك الاقباط الذين اسلموا او استخدموا في بناء المباني وزخرفتها فانهم ادخلوا فيها النقوش والصور التي الفوها في مباني اسلافهم وعليه

فهو ينسب وضع الصور والتماثيل في المباني العربية الى عرب اليمن والى القبط من القبط . ولكن كلام مؤرخي العرب صريح في ان خلفاء العرب وامراءهم كانوا يأتون بالصناع من بلاد الروم حتى لبناء مسجد المدينة المنوّرة على ما ذكرنا في جزء ماير الماضي في الكلام على جامع دمشق . واننا نرتاب في نسبة الصور والتماثيل الى الصناع المصريين لان هؤلاء اهملوا صناعة التصوير والنقش بعد ما تنصروا حتى لا تجد في كنائسهم القديمة التي من قبل الفتح صورة تستحق الذكر . والآثار القديمة التي وجدت في بلاد اليمن حتى الآن لا تدل على ان صناعة التصوير والنقش كانت راقية فيها كما كانت عند اليونان والرومان فالأولى ان يقال ان العرب اقتبسوا صناعتهم من الروم ومن الفرس ايضاً لا من المصريين ولا من اليمانيين

معجم الحيوان

❖ الكُكُم . القَيْقَب . القَيْقَوبَة . الوَقْوَق ❖ Cuculus E. Cuckoo. F. Coucou طائر يشبه الباشق كثيراً وهو لا يحضن بيضهُ بل يضعهُ في عش طائر آخر . وانواعهُ كثيرة

ولم اقف على اسم عربي لهُ في كتب اللغة ولا يعقل انهم كانوا يجهلون امرهُ لانهُ من الطيور المشهورة والكُكُم اعجمي . قال الدميري « انهُ طائر بارض طبرستان حسن موشّى حسن العينين جدًّا سمي باسم صياحهِ الذي يصيحهُ وربما اصطاد العصافير وصغار الطير مما يكون في الآجام والمياه وغيرها لكن لا في جميع السنة بل في فصل الربيع فاذا صاح اجتمعت عليهِ العصافير وصغار الطيور مما يكون في الآجام والمياه وغيرها فتزقهُ من اول النهار فاذا كان آخر النهار اخذ واحداً منها فاكلهُ فذلك فعلهُ في كل يوم الى ان ينقضي فصل الربيع فاذا انقضى اعكست عليهِ فلا تزال تجتمع عليهِ وتطردهُ وتضربهُ وهو يهرب منها . ولا يسمع لهُ صوت الى فصل الربيع الآخر » . فهذا الوصف يشبه كثيراً وصف الطائر المسمى كوكو عند الافرنج فانهُ لا يحضن بيضهُ بل يلقيهِ في عش طائر آخر فمتى فرّخ البيض يزقهُ ذلك الطائر . وفرخهُ شره تهم يتغلب على الفراخ الاخرى التي في العش ولا يزال يزاحمها فيهِ حتى يلقيها منهُ ويبقى فيهِ وحدهُ . وبعض انواعهِ يشبه الباشق كثيراً لذلك تجتمع عليهِ العصافير وتطردهُ . هذه حقيقة هذا الطائر واظنها اساس الحكاية التي رواها الدميري

ويعرف هذا الطائر في الشام بالقيقوبة والقيقب والاخيرة ذكرها صاحب محيط المحيط وهي حكاية صوت هذا الطائر او انها مصرية او سريانية الاصل . وذكر ساڤيني ان العرب